تقديم

بقلم

الفريق ا . ح محمد إبراهيم

وزير الدولة للشئون الحربية

قدّم إليّ الدكتور حسين فوزى النجار - مشكورًا - مؤلفه هذا الذى كرّمنى بإهدائه إلى ، وقد اعتدت أن أتلقى منه مؤلفاته العسكرية والتاريخية التى كانت خير وسيلة لى للقراءة والاطلاع عندما كان يعزّ على إشباع رغبتى لضيق الوقت .

وإنى أعرف الدكتور حسين فوزى النجار ، منذ عمل معى أستاذًا للتاريخ بالكلية الحربية ، باحثًا مدقّقا ، يقبل على البحث والمعرفة ويطيل النظر والتأمل حتى تتكشّف له الحقيقة ؛ لذلك كانت كتبه بحوثًا جديدةً لم يطرقها باحث من قبل .

ويسرنى أن أقدم لكتابه هذا - أرض الميعاد - فقد طرق به موضوعًا لم يطرقه على ما أعلم أحد من قبل ، وطالما وددت وألححت على الكثيرين أن يطرقوه ، فهو موضوع اليوم بالنسبة للعالم العربى ، فقضية فلسطين هى قضية كلّ عربى ، هى كفاح بيننا نحن العرب وبين جماعة من شذاذ الآفاق دعوا أنفسهم بالصهيونيين ، وهى صراع علينا أن نخوضه بمثلنا وأعرافنا وتقاليدنا وتراثنا الزاخر بالكرامة والمروءة وبين تراثهم الملىء

بالترات والحقد والأنانية والكراهية التى عرفت عن اليهود للإنسانية منذ القدم . هى كفاح القومية العربية للصهيونية العالمية . ذلك الكفاح الذى اختلف مسرحه باختلاف الأزمان والأوقات ، فهو تارة فوق أرض فلسطين العزيزة فى شكل قتال بين العرب والعصابات الصهيونية ، وتارة فوق سيناء وعلى ضفاف القناة فى شكل العدوان الثلاثى الغادر ، وثالثة فى ميادين السياسة سواء فى الجمعية العامة للأمم المتحدة أو فى مجلس الأمن .

وللصهيونية فى هذا الصراع سبل شتّى وأساليب عديدة ، فهى تارة علنية سافرة وأخرى خفية مستترة إلّا أنها فى كلا الحالين تقوم على خطط مدروسة ببحث وعمق وتروٍّ ، تنفذها هيئات صهيونية تعلن عن أغراضها فى القليل النادر ، وفى الأغلب الأعم تضطلع بها جمعيات أو جماعات تبدو فى ظاهرها أبعد ما تكون عن الحركة الصهيونية ولكنها فى واقعها وأهدافها صهيونية الميول والدوافع .

وكثيرًا ما تتصل تلك الجمعيات أو الجماعات بحركات وطنية أو قومية أو استقلالية لتسخرها لنفسها فى النهاية فهى لا تبغى من الاتصال بها غير إثارة الشك وبثّ الوقيعة وبذر الفتنة وهدم القيم الأخلاقية فى الأمم التى تخشى منها على وجودها وكيانها ، بل إن هذه الجمعيات والجماعات كثيرًا ما تعمد إلى خلق نوع من الطابور الخامس يؤيد الصهيونية وأهدافها فى الدول المختلفة ، ويحمل على القومية العربية ويدس لزعمائها وقادتها .

وقد أسعدنى الحظ أن أكون أحد خدّام القضية العربية عندما وليت منصب الأمين العام المساعد العسكرى لجامعة الدول العربية ، ولمست وسائل الصهيونية وألاعيبها الشيطانية ومتاعب الخطط العربية لمكافحتها ، حتى قيّض الله العلى القدير للعروبة حاميها وناصرها ، زعيمنا ورئيسنا وقائدنا جمال عبد الناصر ، فغدت القومية العربية حقيقة ملموسة

وقوّةً فعالةً يحسب حسابها فى كلّ مجال ، وأصبحت تحت راية رائدها تضطلع بالدور الرئيسى فى كفاح الصهيونية العالمية ..

وكفاحنا للصهيونية متعدّد الجوانب كما هو متعدّد الميادين ، وقد رأينا كيف دارت المعركة بيننا وبينها فى ميادين مختلفة ، فهو كفاح فكرى يتخذ العلم وسيلةً لغاية ، وهو كفاح دعائىّ يسلك كلّ سبل الدعاية من صحافة وإذاعة وخطابة وندوات ومؤتمرات ، وهو كفاح نفسىّ ، يقوم الاستهواء واستثارة العواطف فيه بدور بارز .

وكتاب الدكتور النجار – أرض الميعاد – من هذا الطراز من الكفاح الفكرى ، فإنه يعرض لأخطر جانب من جوانب الحركة الصهيونية وهو الجانب الدينى فيثبت بما لا يدع مجالا للشك خطأ ذلك الوهم الكبير الذى أوغل به اليهود فى نفوس البشر من أهل الكتاب فاسترقّهم وعاشوا عبيدًا لخرافة كبرى وهى أن فلسطين هى أرض اليهود الموعودة وأن اليهود هم شعب الله المميز ، بما عاهد الله إبراهيم عليه ، ويبرز كيف أوغل اليهود طوال تاريخهم فى ادّعاء فلسطين ادّعاءً يضفون عليه من القداسة ما يرونه لإبراهيم من قداسة فى الأديان السماوية فيغررون بالناس ويغرقونهم فى الوهم الذى يكشف عنه الدكتور النجار فى كتابه هذا حين يردّ الحقائق إلى أصولها التاريخية والدينية ويثبت ضلال اليهود وزيفهم وخداعهم حين احتكروا لأنفسهم كلّ إرث إبراهيم وأنكروا أنهم أصبحوا شرّ أبناء إبراهيم بعد ما رماهم الله بالعذاب والتشريد وجعلهم سخرية الشعوب فحقّت عليهم اللعنة التى وعدهم بها ربّ إبراهيم إذا ما خالفوا وصاياه وضلّوا شريعته .

وقد عشت فى تلك الأجواء التاريخية البعيدة التى أثارها الدكتور النجار فى كتابه منذ عصر إبراهيم عليه السلام حتى اليوم وتجلّت لى من خلال هذا التاريخ البعيد خطط الصهيونية الحاضرة ، فإن اليهود لم يتغيروا كثيرًا بل

إنهم يعيدون الأدوار التى لعبها من قبل آباؤهم وأجدادهم ؛ لذلك كانت الصهيونية فى واقعها الحاضر ، قصة الماضى من تاريخ اليهود ، حين تعيد فصول التاريخ وتكررها فى مختلف العصور بثوب جديد يتمشّى مع ظروف كل عصر ولكن المبادئ هى هى لا تتغير والأساليب هى هى لا تتبدل ، والأكاذيب هى هى لا تتجدّد ، وعلى ذلك فلن نجد صعوبة فى التعرف على خطط الصهيونية المستقبلة بالكشف عن خطط كفاحها السرى والعلنى معًا .

ونحن الآن فى موقف الطبيب الذى يفحص العلّة ويتقصّى الداء حتى يصف العلاج الناجع والشفاء العاجل ، وهذا الكتاب – أرض الميعاد – أشبه ما يكون بعمل التحليل أو جهاز الأشعة الذى يكشف به الطبيب عن مواطن الداء فيسهل عليه تشخيص المرض ووصف العلاج . فقد كشف عن أكاذيب الصهيونية ودحض تلك الخرافة التى أثارها اليهود وجمعوا المخدوعين حولها ودعوها أرض الميعاد ، وبيّن كيف كان الإسرائيلىّ فى ماضيه كما هو فى حاضره خائنًا غادرًا نهّازًا للفرص يستخدم أحطّ الأسلحة وأحقرها ولا يتورّع عن استخدام الذهب والنساء والخداع والختل والخيانة لتحقيق غرضه ، بما لا يدع مجالاً للاطمئنان إليه ، فقد آوينا يوسف عليه السلام رقيقًا ورفعناه إلى أكبر المناصب وفتحنا بلادنا لليهود ليغترفوا من خيراتها فماذا كانت نتيجة البرّ والمعروف ، إلاّ نكران البرّ والمعروف ، حتى أنهم لم يتورعوا عند خروجهم من مصر مع موسى عليه السلام عن سلب أمتعة المصريين وذهبهم ، وقد أبرز الكتاب الشىء الكثير من أخلاقهم وسلوكهم بما لا يدع زيادةً لمستزيد أو يحتاج فى دقّته إلى تدليل أو تمحيص .

وتاريخ الصهيونية حافل بالغدر والخيانة ، وقد تعجب إذ تراها تناصر كلّ حركة تقدّمية ولكنها فى الواقع تتطفل عليها لتوجهها لمصلحتها

وتستغلّها لفائدتها فإذا استعصت عليها انقلبت ضدّها فهى التى ناصرت البروتستانتية فى ألمانيا ثم انقلبت على ألمانيا وغدرت بهتلر كما غدرت من قبله بالقيصر ولهلم الثانى ، وهى التى آزرت الشيوعية وأيدتها لتستغلّها فى تحطيم الأديان وليكون لها من الدول الشيوعية سندًا ونصيرًا كما حدث حين سلّح الشيوعيون العصابات الإسرائيلية خلال الجولة الأولى لحرب فلسطين عام ١٩٤٨ .

وهى التى تغلغلت فى الأحزاب الإنجليزية وسيطرت على المصارف العالمية واستغلّت حاجة الحلفاء إلى المال اليهودى لتحصل على وعد بلفور . وحين أخطأ الأمريكيون من قبل وسمحوا لليهود بالهجرة إلى بلادهم وأفسحوا لهم من ميادين العمل والمساواة ، تغلغل اليهود فى بلادهم وتسربوا إليها فى أفواج منظمة وسرعان ما سيطروا وهم فئة قليلة على اقتصادياتها وألوان نشاطها المختلفة وسخّروها لخدمة الصهيونية وخلق إسرائيل ومؤازرتها فى كلّ مجال دولى .

إن إسرائيل تنفّذ خطتها التقليدية والقديمة وكما عادت من بابل فى شكل زحف عسكرى منظم نراها تعود اليوم إلى فلسطين قوّةً عسكريةً تقوم على العنف والإرهاب والقتل والاغتصاب .

وكما عاد اليهود من السبى البابلىّ بعد الحروب التى انتصر فيها حليفهم كورش ملك الفرس على أعدائه فى حمى الحراب الفارسية ، نراهم اليوم وبعد ثلاثين قرنًا يعودون فى حمى حراب الحلفاء قوةً عسكريةً تدربت فى شتى ميادين القتال التى خاضها الحلفاء بجيوشهم فى الحربين العالميتين الأولى والثانية . كلّ هذا ودافع اليهودى هو تلك الخرافة الدينية التى علقت بذهنه وكانت سرّ نكبته وستكون بعينها القاضية عليه الآن فلم يعد هناك مجال لقيام دولة تقوم على التعصب الدينى والعنصرى .

وكما كانت نهاية مملكة إسرائيل القديمة فستكون نهاية إسرائيل الجديدة

الدمار والتشرّد ، ولن تقوم لإسرائيل قائمة فهذا وعد الله الحق ألا تكون لهم دولة جزاء ضلالهم وخروجهم على طاعته ، وإذا كان القدر قد قيّض للعرب زعيما ينادى بالقومية العربية ، فإن بعث هذه الدعوة فى ذلك الوقت بالذات يبدو كأنه دعاء القدر حتى لا تقوم إسرائيل ولا تحقق أحلامها الخبيثة بفضل اتحادنا وتضامننا وقوّتنا الجديدة .

إلاّ أن علينا نحن العرب ونحن نرى الصهيونية تعمل جاهدةً لبناء إسرائيل وفق خطط مدروسة وتستند إلى وسائل تتغلغل فى شتّى المجالات العسكرية والسياسية والاقتصادية والفكرية ، علينا نحن العرب أن نوحّد جهودنا لخدمة القومية العربية ملتفّين حول جمهوريتنا الفتيّة وزعيمها الكبير .

وإنى لأشكر الدكتور حسين فوزى النجار الذى نحا هذا النحو الفريد فى الكشف عن خرافة استبدّت ببعض الأفكار زمنًا والكشف بذلك عن أكاذيب إسرائيل وخططها وأساليبها التقليدية ، وأدعو الله أن يكثر من أمثاله وأن يديم عليه التوفيق والسداد فى خدمة العروبة .

فريق أ .ح

محمد إبراهيم

وزير الدولة للشئون الحربية

مقدمة الطبعة الثانية

صدر هذا الكتاب فى طبعته الأولى آخر الخمسينيات ، ولم يلق ترحيبا من الدوائر الحكومية حينذاك ، وكانت موجة المدّ الشيوعى تجتاح البلاد وعلى رأس الحكومة رجل عرف بميوله الماركسية ، ولم أدر علّة ذلك ولا سببه ، وكان ذلك إثر عودتى من أمريكا فى رحلة اشتركت فيها مع أستاذى المرحوم حسين كامل سليم فى الدعاية للقضايا العربية وعلى رأسها قضية فلسطين وكنت متّهما فى أوساط الشيوعيين بميولى اللاماركسية ، ولعلّ ذلك هو ما دعانى إلى أن يقدم للكتاب الفريق ا . ح محمد إبراهيم(رحمه الله) وكان وقتها وزيرًا للحربية ، عملت معه من قبل سنوات رئيسًا لمادة التاريخ القومى بالكلية الحربية وكان كبير معلميها عرفت فيه من النبل والصدق والعلم والتقدير ما جعل الودّ بيننا خالصًا وصادقًا ، حتى أنه صباح ٢٣ يوليه ١٩٥٢ ، وقد رأى القائمون على حركة الجيش التى أودت بالنظام القديم أن يلزم كبار الضباط ممن لم يشملهم التحفظ فى الكلية الحربية ، دورهم فلا يبرحونها ، وقد لزم الأميرالاى (العميد) محمد إبراهيم داره ، فزرته يومها رغم التحذير ، وكنت الوحيد الذى زاره ، ولكن القائمين على الحركة رأوا أن ينتفعوا بقدراته وكفاءته وخبرته العسكرية وعلمه وكان من القلّة التى أتمت دراستها العسكرية فى « ساندهرست » ثم فى كلية أركان الحرب بكمبرلى فى إنجلترا ، فتولّى رئاسة هيئة الأركان ثم وزيرًا للحربية حتى اختير سفيرًا لمصر فى المجر ، وكان قد زكّانى للعمل بجامعة الدول العربية فعملت بها سنوات قائمًا على

إدارة الإعلام وكانت يومها تسمى « إدارة الاستعلام والنشر » .

وقد قدّم للكتاب هذا التقديم الذى أعتز به وأبقى عليه ، وبرغم ما قمت به من جهد فى الدعاية للقضايا العربية ، لم أنج من ملاحقة المباحث والمخابرات ، وكانت تأتينى أخبار تلك الملاحقة التى تتابعت بعد إصدار هذا الكتاب عن طريق زملاء أعزاء وضباط يكنّون لى كثيرًا من الودّ منذ كانوا طلابًا بالكلية الحربية ، وإن كانت قد أضنتنى فإنها لم تحرك منى ساكنًا منذ ابتعدت عن حركة الجيش وأربابها ، فلم أشترك فى أى تنظيم سياسى من التنظيمات التى أقامتها واحدًا بعد الآخر .

والواقع أننى كنت أرى البلاد تتردّى فى سياسات لا يعلم إلاّ الله مداها ، وإن كنت أراها تقود إلى البوار ، فآثرت الابتعاد دون أن يقضى ذلك على ما بينى وبينهم من ودٍّ وسند عرفته يوم كانت تلمّ بى لائمة من حثالات هيئة التحرير والاتحاد القومى والاتحاد الاشتراكى ممن تعلّقوا بأذيال الثورة طلبًا للسلطة والجاه ولم يؤمنوا بمبادئها ، وأذكر من ذلك ما كان من تجمّع نوّاب مجلس الأمة ورجال الاتحاد الاشتراكى فى محافظة بنى سويف ، وكنت وقتها مديرًا للتعليم بالمحافظة وحلت بينهم وبين التدخل السخيف فى شئون التربية والتعليم ، وأدّى بهم أحيانًا إلى المرور على المدارس والتفتيش على الفصول والتحكم فى النظار ومديرى المراحل الدراسية ، فذهبوا يشكونى إلى « السيد عبد المحسن أبو النور » وكان وقتها أمينًا للاتحاد الاشتراكى ، فطردهم شرّ طرد ، وعلمت بما حدث من غيره . ولم يكن لأمر يصدر من القائمين على الاتحاد الاشتراكى فى المحافظات أن يردّ ، وكم نقل الكثيرون من مديرى التعليم بطلب من الاتحاد الاشتراكى ، وأذكر من بينهم مديرًا فاضلاً وأستاذًا عالمًا من أوّل مبعوثى مدرسة المعلمين العليا إلى إنجلترا لاستكمال الدراسة هو المرحوم « متولى بدوى » وكان رفيقًا فى بعثته للوزير والسفير العالم الفاضل

« أحمد نجيب هاشم » وقضى الرجل السنوات الأخيرة من خدمته بلا عمل فى الوزارة بعد أن نقل عسفًا من محافظة الفيوم ثم من محافظة السويس بأمر من سلطات الاتحاد الاشتراكى فى المحافظتين .

وكانت سنوات عجافًا فى حياتى الوظيفية المتباينة منعت فيها من السفر إلى الخارج مرارًا يوم عينت أستاذًا بجامعة ولاية نيويورك ويوم طلبت جامعة بنغازى إعارتى أستاذًا بها ، وحيل بينى وبين الكتابة فى الصحف السيّارة إلاّ ما كنت أنشره من كتب لا سلطان لمن يقفون دونى عليها . وما أحببت أن أشكو إلى المرحوم جمال عبد الناصر أو غيره ، ولو شكوت لزال عنى العسف فقد سيطر على الحكم حينذاك وعلى أجهزة الإعلام رجال لهم اتجاهاتهم الفكرية والسياسية التى لا أدين بها ولا أحبها وهم يعرفون ذلك عنى ، وكان أكثرهم من المأجورين والمنتفعين وأصبح لهم هيل وهيلمان ، وياويل من تصدّى لهم .

وكم كانت دهشتى لما أثاره هذا الكتاب من حفيظة تلك الحثالة ، وإن طاش سهمهم حين أدركوا أنهم قاصرون دونه ، فسكتوا عنه وإن حالوا دون التنويه به أو الإشارة إليه أو توزيعه فى مصر . فلم تقتنه مؤسسة أو وزارة ، حتى أن وزارة التربية والتعليم أغفلته ولم يكن له مكان فى مكتباتها العديدة فى الوقت الذى ابتاعت منه هيئة التحرير الفلسطينية المئات وابتاعت الجزائر وحدها خمسمائة نسخة واقتنى قطاع غزة ثلاثمائة نسخة ابتاعها القائمقام أحمد عطية المشرف على الأمن العسكرى فى القطاع حينذاك ونفدت نسخ الكتاب فى وقت قصير ولم أفكر فى إعادة طبعه حتى رأت دار المعارف مشكورة أن تعيد نشره .

وقد اهتديت إلى هذا البحث بعد جولتى فى القارة الأمريكية للدعوة العربية فقد رأيت القوم يؤمنون بتفسير خاطئ لآيات الكتاب المقدس عن الوعد الإلهى لإبراهيم عليه السلام بتلك الأراضى المقدسة ، وهو إيمان

نابع من الفكر البروتستنتى بعودة اليهود إلى فلسطين حتى يهتدوا إلى المسيحية والخلاص الأخير ، ووجدت الصهيونية فى العالم البروتستانتى ما لم تجده فى العالم الكاثوليكى حين قدم البروتستانت التوراة على الإنجيل واتخذوا منها زادًا لعقيدتهم منذ حركة لوثر وكلفن فى الإصلاح الدينى المسيحى ؛ ولذلك بقيت الفاتيكان لا تعترف بإسرائيل وبقيت الدول الكاثوليكية كأسبانيا والبرتغال تقفل دونها الأبواب ، وكانت محاولات إسرائيل العديدة فى الفاتيكان ليصدر البابا ما يبرئ اليهود من تهمة صلب المسيح عليه السلام . ويقصّ السفير محمد التابعى فى « مذكرات سفير » التى صدرت عن دار المعارف أخيرًا ، خبر المحاولات العديدة التى قامت بها إسرائيل فى هذا الصدد وكان سفيرًا لمصر بالفاتيكان فى تلك الفترة ، كما كان له دوره البارز فى العمل على إحباطها ، حتى أنذر بالاغتيال من جانب الهيئات الصهيونية ، فلم يأبه لها واستمر فى محاولاته ، حتى صدرت الوثيقة بما لا يبرئ يهود العهد القديم من دم المسيح ولا يدين يهود اليوم بتبعة أسلافهم - وكان ذلك كسبًا حقيقيًّا للسفير التابعى جديرًا بالتنويه ، فلم يكن غيره وغير سفير لبنان للتمثيل السياسى العربى لدى الفاتيكان .

ومهما قيل أو يقال عن أطماع إسرائيل السياسية أو الاقتصادية أو الإقليمية ، وإن كان ذلك مما تؤكده طبيعة الدولة ، فإن الدولة ذاتها قامت على نبوءة دينية صاغها اليهود على هواهم واجتمعوا حولها ودانوا بها حتى قيل إن اليهود شعب صنعته التوراة ، مما حمل « هـ . ج . ويلز » على السخرية بهم ، حين يقول فى كتابه « مختصر تاريخ العالم » : إن ربّ إبراهام وعده وأولاده بهذه الأرض البسامة ذات المدن الغنية وإن اليهود لم يصنعوا التوراة ، وإنما التوراة هى التى صنعت اليهود » ويقول : « كان اليهود يؤمنون بأن الله الرب الأحد للعالم أجمع ، كان رب بر وصلاح ،

ولكنهم كانوا يقولون أيضًا إنه ربّ تاجر ، أبرم مع أبيهم إبراهام صفقة جدّ رابحة لصالحهم يتعهّد لهم فيها أن يرقى بهم فى النهاية إلى سيادة العالم .. حتى جاء المسيح لينكر عليهم ذلك » ويعلم الناس أن الله ليس رب صفقات وأن لا شعب مختار .. وأن الناس جميعًا إخوة » ..

ومازال اليهود ينشدون معالم هذه النبوءة ، فهى العقيدة أولاً فيما يدعونه لأرض ميعادهم كما يقولون ، يعلنونها ولا يدارونها ويدوّنونها على سجف معابدهم وكنيستهم ، وهى القدوة فيما كان يهود العصر القديم يصنعونه من أجلها مهما لجّت فى الخيال وابتعدت عن الواقع ، فإذا لم يكن لهم فى يوم من الأيام ملك يطاول هذه النبوءة ، فإنها مازالت تسعى بهم إليها . فأخذوا يحيون معالمها ، ويقولون إنهم فى يومهم هذا يواجهون ما واجهه أسلافهم فى العهد القديم ، فيقول أستاذ فى الجامعة العبرية بأن « جنود إسرائيل قد ألقوا بأبصارهم على البحر الأحمر بعد حرب ١٩٦٧ ، لأول مرة بعد أن عبره موسى لآلاف خلت من السنين » وحاول بعض الحاخامات اليهود أن يفسّروا معارك ١٩٦٧ على ضوء ما جاء فى العهد القديم عن معارك العبرانيين ، ويبرر بن جوريون الطابع العسكرى للمجتمع الإسرائيلى ، فيقول : « إن جنود موسى ويوشع وداود عاشوا فى حروب متصلة وكذلك يبقى صهيون فى حرب دائمة وراح بعض الكتّاب العسكريين فى إسرائيل يقارنون بين فرسان داود وسليمان ودبابات حاييم لاسكوف وإسرائيل طال ، وبين معارك جدعون ومعارك ديان ، بل إن النظرة الإسرائيلية للصراع الإسرائيلى العربى ، هى أنه استمرار للصراع القديم بين العبرانيين والمصريين والآشوريين والبابليين والكنعانيين .

ومازالت الصهيونية تعيش فى أحلام الماضى تستعيده فى أحلام اليقظة غافلةً عن حركة التاريخ ، وهى الغفلة التى أودت بهم من قبل وتدفعهم إلى الهاوية اليوم ، فالتاريخ لا تصنعه حقبة ولكنه مأثرة حقب تتراكم

لتقف بالأحداث عند حدودها الفاصلة ليكون لها الحكم الأخير ، ولكن محنة اليهود أنهم يصوّرون التاريخ على هواهم ، يستلهمون الأسطورة ويجردونها من الواقع ويعيشون فى أحلامها ، ومازالت الأسطورة تلجّ بهم فى متاهات الخيال حتى تودى بهم فى النهاية . ففى هذا العالم الجديد لا مكان للعنصرية ولا للتعصّب الدينى .

وإن بقيت نبوءة الميعاد تصفع عقول المجتمع الصهيونى فإن هذه النبوءة إن صدقت فهى لأبناء إسماعيل دون أبناء إسحاق ، وإذا كان لنا أن نؤمن بالله وكتبه ورسله ، وما جاء به إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام أجمعين من نبع واحد ، فإن علينا أن نرى مصداق النبوءة إذا سلمنا بها . وقد كان لهذه النبوءة - كما تناولها البحث - صداها فى المجتمع الأمريكى البروتستنتى وهو ما حملنى على هذه الدراسة منذ ربع قرن بعد أن لمستها فى تجوالى بتلك البلاد خلال الخمسينيات وها هى دار المعارف تقدمها من جديد حتى يتبيّن الحق من الباطل ، وإن كانت الصهيونية لا تذكر عنها الكثير فى الوقت الحاضر فى ندواتها الإعلامية فى الخارج وإن بقيت تلحّ عليها فى المجتمع اليهودى ، حتى لا تجتاحه أفكار العالم الجديد عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية ، فإذا كان العالم الأوربى والأمريكى قد تقبّل أن يكون لليهود وطن ودولة ، ليتخلّص منهم فى أرضه ، فإنه لا يقبل أن يكون ذلك على حساب الغير ، وأذكر من ذلك حديثًا على مأدبة غذاء فى « سان أنطونيو » تكساس أهبت فيه بالضمير الأمريكى أن يردّ اللاجئين الفلسطينيين إلى أراضيهم فليس مما يقبله الضمير الإنسانى أن يذبح الفلسطينيون ويشرّدوا من بلادهم وردّت سيدة مسيحية تعمل فى شركة يهودية لتقول : وماذا فى ذلك فهذا ما فعلناه بالهنود الحمر . ووجدتها فرصةً للحديث عن سماحة العرب وارتقائهم الحضارى بالمقارنة بالوحشية والتخلف الحضارى الأمريكى ،

وإذا كان النازحون الأوربيون إلى أمريكا قد أبادوا الهنود الحمر واستذلوا السود فإن العرب فى انسياحهم الظافر فى صدر الإسلام قد تركوا لأبناء البلاد التى فتحوها حريّتهم الاجتماعية والدينية وعاشوا معهم وأصهروا إليهم ، ويبقى على أمريكا أن تتعلم هذا الدرس من العرب ، وقد عاش اليهود بيننا أحرارًا وكان لهم من الحقوق ما للمسلمين ووصل كثيرون منهم إلى أرفع المناصب فى الدولة ، بينما أوربا تعذبهم وتضطهدهم وتحرمهم حقّ المواطنة . أفذلك هو جزاء العرب من اليهود ؟ .

وكان أن اعتذر كثير من المستمعين عن خطأ هذه السيدة ، بل كان منهم من أسرّ إلى بأنها تعمل مع اليهود ، وكنت أعرف أن الأمريكى يكره الصهيونى ولكنه يخشاه .

وإننى لأرى الموقف اليوم فى يد إسرائيل فإن أرادت سلاما فنعما ما أرادت وإن أرادت حربا فلها ما تريد ، فالتاريخ ، إن كان له أن يعود - كما يقولون - فليعد ، فإن عاد فإنهم يعرفون ما انتهت إليه دورته .

وما أحسن السلام العادل يعم الأرض .

الزمالك ٢٨ يناير ١٩٨٣
الموافق ١٣ ربيع الثانى ١٤٠٣ .

دكتور حسين فوزى النجار

مقدمة

قامت الحركة الصهيونية على عقيدة حاولت أن ترقى بها إلى ذروة الحقيقة من عقائد الأديان السماوية مسيحية أو إسلامية بله اليهودية ذاتها وهى أن فلسطين وما حولها من أرض تمتد من « نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات »[1] هى أرض الميعاد وعد الرّب بها شعبه المختار من بنى إسرائيل لتكون لهم ملكًا ووطنًا . فإيمان المسيحية والإسلام باليهودية وأنبيائها يحمل المسيحيين والمسلمين على الإيمان بالتوراة وإلاّ اتهم إيمانهم وداخل قلوبهم الزيغ فى دينهم ، وإن قال المسيحيون والمسلمون بتفسير للتوراة يجبّ تفسير اليهود لها فإن إيمان كلٍّ منهما بجوهر دينه ، إيمانه بجوهر اليهودية ذاتها يحمل كلا منهما ذودا عن تفسيره ما يؤكد إيمانه ويؤيد جوهر عقيدته ، حتى لا يتهم فى إيمانه أو يتزعزع وجدانه الدينى .

واليهود وإن كانوا لا يؤمنون بالمسيحية ولا بالإسلام إلاّ أنهم يرون فى إيمان المسيحيين والمسلمين باليهودية ما يمكن أن يؤيد دعواهم فى أرض الميعاد ، فيلحون فى تفسير التوراة على هواهم ويتطرقون بتفسيرهم إلى جوهر المسيحية والإسلام علّهم يجدون من المؤمنين بهما ردفا وسندًا .

وسواء آمن اليهود بتفسيرهم هذا أم اتخذوه وسيلةً لدعم عقيدتهم المبتغاة ، وإنعاش آمالهم القومية فى أرض الميعاد ، فقد أصبحت هذه العقيدة هدى الصهيونية ونبراسها تجمع حولها اليهود وغير اليهود من أصحاب الديانات السماوية ليؤمنوا بها إيمانهم بتعاليم دينهم وإلاّ مسّ الزيغ

---

(١) تكوين ١٥ : ١٨ .

قلوبهم إن لم يؤمنوا بحقيقة من حقائق دينهم ، إلا أن الصهيونية قد بنت عقيدتها على تفسير خاطئ لآيات الكتاب المقدس وتخريج باطل لنصوصه حتى غدا اليهود أنفسهم ضحايا هذا الوهم المقدس .

ولسنا فى مجال مناقشة ما تضفيه التوراة من قداسة على بقعة من بقاع فلسطين أو على فلسطين جميعًا وما حواليها فهى أرض الأنبياء والرسل ما فى ذلك مراء وهى منتجع الناصرى ومثواه ومهبط رسالته وهى القبلة الأولى للمسلمين وأرض الإسراء والمعراج فيها كنيسة القيامة والمسجد الأقصى وهى الأرض التى قدستها الأديان السماوية جمعاء .

ولكننا نناقش مدى الأثرة فى دعوى الصهيونية وهى أن تكون الأرض المقدسة لهم دون غيرهم وطنًا ودولة وأنها أرض الميعاد لما سموه شعب الله المختار .

ولا ندرى لمَ وقع الاختيار على إسرائيل [1] دون غيره من أبناء إبراهيم ليكون مختارًا ولتكون ذريته شعب الله المختار وقد كان من نسل إبراهيم أنبياء ورسل بل إن إبراهيم هو الأب الأعلى لأنبياء الديانات السماوية الثلاث .

فإذا بلغت الأثرة ببنى إسرائيل أن يدّعوا لأنفسهم بركة الله واختياره وأنهم الأعلون بين أبناء إبراهيم فما كان للمسيحية ولا للإسلام أن يدّعيا بعد ذلك من بعث إلى الناس كافة وما كان للناس فيهما من حاجة .

فإذا أردنا أن نناقش ما وعد الله به إبراهيم وذريته من حق مقدّس فى فلسطين أو أرض الميعاد فأحرى بنا أن نناقش ما جاءت به الكتب المقدسة جميعًا عن هذا الوعد المقدس وأن نفسّر هذا الوعد المقدس على حقيقته وعلى هدى تطوره التاريخى . فالتاريخ مصداق النبوءة فإن جفاها

---

(١) إسرائيل لقب يعقوب . تكوين ٣٢ : ٢٤ - ٣٩ .

فقد ضلّت قداستها وإلّا كان لها من تفسيره برهانًا وصدقًا .

ولقد صدقت النبوءة حقًا ولكن على غير ما يراها بنو إسرائيل ودعاة الصهيونية مما يتناوله هذا البحث .

ولذا كان علينا أن ننظر فى هذه النبوءات جميعًا وأن نفسرها تفسيرها الصحيح ، على واقع التاريخ وأيهما أقرب إلى مدلول الحقيقة من معناه .

فمما يؤخذ على اليهود أنهم عنوا بتفسير التوراة تفسيرًا ماديًا كأنهم يعقدون صفقةً تجاريةً فهم كما يقول هـ . ح ويلز « يؤمنون بأن الله الرب الأحد للعالمين جميعًا ، ربّ بر وصلاح ، ولكنهم يقولون أيضًا إنه رب تاجر ، قد عقد فى أمرهم صفقة مع أبيهم إبراهيم ، وهى صفقة جدّ رابحة لهم ، يلتزم فيها لهم بأن يرقى بهم فى النهاية إلى السيادة على الأرض[1] .

وهذا هو جوهر الخلاف بين اليهودية والمسيحية ، فبينما كان اليهود يمجّدون من ذاتهم ويعلون من شأن أنفسهم بأنهم شعب الله المختار وأن الله وعدهم بالملك والسيادة على العالمين إذ بالمسيح يسفّه من أحلامهم ويبشّر بعقيدة تحبّ آمالهم وأحلامهم فى ملكوت السموات والأرض فينادى بأن الله هو أب البشر جميعًا وأن الناس أجمعين إخوة وكلهم ابن محبوب لذلك الأب الإلهى ، وأن مملكة السماء جميعًا تظلل كلّ أتباعه ، وهذا هو ذاته جوهر الخلاف بين اليهودية والإسلام فلم يميز الإسلام أبناء إسماعيل على غيرهم من الأمم ولم يجعل لعربى فضلا على عجمى إلّا بالتقوى وسوّى بين الناس جميعًا إلّا حيث يكونون من تقوى الله ، فقد ارتضى الله الإسلام دينًا للناس أجمعين لا دينًا قبَليًا يقوم على الولاء للشعب المختار كاليهودية .

ولا يعنينا من هذا البحث أن نفنّد نقاء الشعب المختار إلّا فيما يعرض

---

(١) H.G. Wells : A Short History of The World; Teaching of Jesus.

له البحث من هذا الجانب فقد أصبح نقاء السلالة والعنصر خرافة لا تصمد أمام الواقع التاريخى إلّا فى الشعوب المنحطّة وهى شعوب لم تصمد فى عزلتها أمام عوامل الفناء أو الانحطاط التى تنزل بالشعوب التى لا تتجدّد دماؤها بين حقبة وأخرى على الدوام كما يقول علماء الوراثة .

وليس للشعب اليهودى أن يدّعى نقاء العنصر والسلالة وإلّا أدركه الفناء من زمن بعيد وحلّ به الانحطاط البدنى والعقلى مما يخالف تاريخه وما عرف عنه من ذكاء وفطنة وسلامة بدن فقد امتزجت دماء اليهود بدماء غيرهم من الشعوب التى اختلطوا بها وإن رأى بعض طوائف اليهود ألّا يبشروا بديانتهم لأنها جاءت لهم وحدهم فليس لهم أن يدنسوها باعتناق الجوييم لها ، والجوييم فى عرفهم من ليسوا من الشعب المختار . فقد ظلّوا على اعتقادهم رغم هجنة دمائهم بأنهم شعب الله المختار ، فإذا كنا لا نعرض لنظرية الشعب المختار وهى ما يجب أن تقوم أوّلا على نقاء العنصر والسلالة فلأنها غدت خرافة أمام تباين العناصر والسلالات فى الشعب اليهودى .

وسواء كان الاختيار للعقيدة أو للعنصر فإن ما يعنينا حقيقةً هو مدى هذا الالتزام الإلهى لهؤلاء المختارين ، وهو التزام يقوم على تفسير تلك النبوءات التى تعرض لأرض الميعاد ، وعلى من تصدق هذه النبوءات ، أعلى بنى إسرائيل وحدهم أم على بنى عمومتهم من أبناء إسمعيل ، أهى لليهود أم للعرب ؟

إلّا أننا قبل أن نخوض فى هذا البحث لابدّ لنا أن نعرض لتلك الدعاوى العريضة التى يشلّ بها الصهيونيون تفكير بعض الطوائف المسيحية المتدينة والعوامل النفسية التى تكمن وراء هذه الدعاوى العريضة . وسنرى أنها دعاوى قامت على زيف من حقائق التاريخ وأن

العاطفة فيها تغلب الحكمة والعقل والحقيقة ، وهى عاطفة زائفة تبرر ما ترتكب إسرائيل من وحشية لتضفى على عملها بطولة المضطهد وحق السليب المغلوب فتستدر الرحمة وتكسب تأييد الغافلين .

ففى وسط هذا الضباب من العاطفة اندفع من أعمتهم الضلالة عن تبيّن الحقيقة إلى تأييد إسرائيل بدعوى تحقيق ما جاء من نبوءات الكتاب المقدس ، أو عطفًا لمجرد العطف على شعب شريد مضطهد يدعى بحقًا عن الدعة والأمن فى وطن وعد به منذ آلاف السنين ولو على حساب شعب آخر مادام فى ذلك مصداق لآيات الكتاب المقدس ، وسنرى لماذا اتجهت الدعاية الصهيونية نحو المسيحيين من غير الكاثوليك والأرثوذكس ولماذا نجحت بينهم فكان الإنجليز والأمريكيون أكثر الشعوب عطفًا على اليهود .

فحين بدأت الحركة الصهيونية نشاطها لإقامة دولة يهودية فى فلسطين خشيت أن تحرك فى أعماق المسيحيين المتدينين عداوتهم القديمة لليهود ، فتنبعث مرة أخرى دعوى الثأر كما يقولون من « قتلة السيد المسيح » كما انبعثت خلال العصور الوسطى وانطلقت تدفع المسيحيين فى أرجاء أوربا للتنكيل بمعذّبى المسيح وقاتليه . كان على دعاة الصهيونية أن يتحاشوا جهد طاقتهم عودة الشك والحذر لدى المسيحيين من عودة اليهود إلى امتلاك بيت المقدس وكنيسة القيامة وبيت لحم والناصرة بلدة الناصرى عليه السلام فأقاموا دعوتهم على أساس دينى وأشاعوا بين المسيحيين لا سيما فى أمريكا أن تأسيس دولة يهودية فى فلسطين ليس إلّا تحقيقا لآيات الكتاب المقدس ومصداقًا لنبوءات العهد القديم ، وراحوا يفسرون آيات العهد القديم ويخرّجونها على هواهم ليخدعوا بها شعوب الأرض وليقضوا بها على كلّ بادرة تحرّك المتدينين فى أوربا وأمريكا ضدّ الصهيونية ، ونجح الصهيونيون فى بثّ تلك الفرية التى افتروها على آيات

الكتاب المقدس بين كثير من الهيئات المسيحية الأمريكية فخدعت بها وراح بعضها يؤيد الصهيونية فى دعواها . ولا ننسى أن البروتستانتية قد عانت من اضطهاد الكاثوليكية وطوائف الكاثوليك ما جعل البروتستانت يجفون التعصب الدينى الذى يجرّ إلى إراقة الدماء ، ثم أن موجة اضطهاد البروتستانتية والتنكيل بدعاتها ومعتنقيها جاءت فى الوقت الذى اجتاحت فيه أوربا موجة العداء المسيحى للطوائف اليهودية وتركت هذه المحنة المشتركة جذورها العميقة بين البروتستانت فى ثنايا عقلهم الباطن وتوارثها أحفادهم دون أن يحسّوا دبيبها فى أعماقهم .

ثم أن البروتستانتية ترى فى التوراة كتابها المقدس والمصدر الأصيل للديانة المسيحية وكان هذا هو جوهر الخلاف بينها وبين الكاثوليكية ، فحين بعث المسيح برسالته ظنّ اليهود أنه المسيح المنتظر الذى يقودهم إلى مملكة الأرض ، ويعيد لهم مجد أورشليم ومملكة إسرائيل ويخلصهم من ذلّ الرومان ، ولكن المسيح لم يفجعهم فى آمالهم القومية فحسب بل راح يحطّم أسطورة الشعب المختار ، فعن مملكة الأرض قال : « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » وعن الشعب المختار يقول : « إن الله هو أب البشر جميعًا وإن مملكة السماء تظلل كلّ أتباعه » ، ثم يقول إنه ما جاء لينقض الناموس بل ليكمله . فكأن المسيح لم يأت بثورة تجبّ من عقيدة اليهودية وتنكرها بل جاء يصلح من شأنها ويردّها إلى الطريق القويم من تعاليمها الأصيلة تلك التعاليم التى حوّرها اليهود لتبرّر نزعتهم العنصرية وامتيازهم على البشر ، وضاق اليهود بالمسيح فوصموه بالكذب وأنه تابع « بعزبول » الشيطان يدين بأمره ويتلقى المعجزة والوحى منه . ثم ائتمروا به حتى صلبوه فراح حواريوه ينشرون كراهية اليهود ومقتهم بين أتباعهم ولكنهم لم ينكروا التوراة أو يجبّوا أحكامها وإن اتهموا اليهود بتحريفها وقالوا إن التوراة تنتهى بكتب موسى الخمسة ، أما ما جاء بعد ذلك من

أسفار كسفر أشعيا وأرميا ودانيال وعاموس حتى ملاخى فهى من وضع اليهود أنفسهم خلال السبى البابلى أو بعده .

وامتدت الحرب بين المسيحيين واليهود من يومها وحملت الكنيسة الغربية – كنيسة الرسول بولس – دون الكنيسة الشرقية كنيسة الرسول مرقص – عبء الانتقام من قتلة المسيح ومعذّبيه كما يعتقدون ، فقد آل إليها الحكم والسلطان بعد أن أصبحت الكاثوليكية المذهب الرسمى للإمبراطورية الرومانية ، بينما انتشر المذهب الأرثوذكسى فى الولايات الشرقية للإمبراطورية ولم يكن للكنيسة الشرقية من الجاه والنفوذ ما للكنيسة الغربية ، وراحت الكاثوليكية تشنّ حربًا عوانًا على اليهودية واليهود فى كلّ بقاع الأرض امتدّت حتى العصور الوسطى حيث شهدت محاكم التفتيش أقسى ما حلّ باليهود من تعذيب . وانطوى اليهود طوال ذلك العهد على أنفسهم فى عزلة رهيبة وفى أحياء خاصة يمارسون فيها طقوسهم الدينية فى أضيق نطاق .

ولم يخرج اليهود من عزلتهم إلاّ بقيام البروتستانتية فى ألمانيا ووقوع الثورة فى فرنسا ، ففى ألمانيا قام « موسى مندلسون » يدعو قومه من اليهود إلى الخروج من عزلتهم والتجاوب مع البيئة التى يعيشون فيها والشعب الذى يعيشون بينه فيتكلمون لغته ويحيون حياته ، وكانت العبرية أو « اليديش » التى تكتب بحروف عبرية هى لغة يهود ألمانيا ، وفى فرنسا أعلنت الثورة المساواة بين جميع المواطنين ومن بينهم اليهود لا كشعب وإنما كمواطنين فرنسيين ثم بدأوا ينالون حريتهم السياسية والدينية بعد ذلك فى دول أوربا الأخرى .

فالبروتستانتية هى صاحبة الفضل الأوّل على اليهود ؛ ويفسر هذا ما يجد اليهود من عطف فى البلاد التى تدين بها كأمريكا وإنجلترا . فقد قامت البروتستانتية فى الأصل على أساس إحياء التوراة والبحث فى

تعاليم العهد القديم والمثل العبرانية القديمة ، حين حالت الكنيسة الكاثوليكية فى حربها لليهود بين المسيحيين من شيعتها وبين قراءة التوراة وما فيها من تمجيد لليهود ولعن لمن عاداهم من الأمم . فالتوراة برغم أنها كتاب اليهود المقدس ، لم ينسخها المسيح حين قال : « لا تظنّوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء . ما جئت لأنقض بل جئت لأكمل[1] » إلّا أنه نسخ ما أضفت على اليهود من قداسة وامتياز حين قال : « إن كثيرين يأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع إبراهيم وإسحق ويعقوب فى ملكوت السموات ، وأما بنو الملكوت فيطرحون إلى الظلمة الخارجية[2] . ومن قبل كان يوحنا المعمدان قد نسخ عنهم قداستهم حين صاح فيهم : « يا أولاد الأفاعى .. لا تفتكروا أن تقولوا فى أنفسكم لنا إبراهيم أبًا ، لأنى أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادًا لإبراهيم »[3] .

وظلّت التوراة مصدر الشريعة المسيحية إلّا فى الطلاق فقد حرمه المسيح إلّا لعلّة الزنا ، وفى أن ملكوت الله لا يشمل بنى إسرائيل وحدهم بل يشمل البشر جميعًا ممن ينطوون تحت ظلّه ، وأن نعمة السماء ليست لأناس دون الآخرين بل هى لكل من اهتدى وآمن بالخير والمحبة ؛ وبذلك جبّت المسيحية ما ادّعى أبناء إسرائيل من امتياز وفضل على الأمم ، إلّا أن الكاثوليكية رأت فى قراءة التوراة تمجيدًا لليهود الذين يعتقدون أنهم قتلوا المسيح وعذبوه فحرمت قراءتها على العامة حتى لا يختلط الأمر عليهم بين يهود العهد القديم والخارجين عليه ممن قتلوا المسيح وعذبوه واليهود الذين كان عليهم أن ينطوا تحت لواء المسيحية ،

---

(١) متى ٥ : ١٧ .

(٢) متى ٨ : ١١ - ١٢ .

(٣) متى ٤ : ٨ - ٩ .

فالمسيحية لم تنسخ الشريعة اليهودية حقًا ولكنها اجتثّت كيان اليهود واعتبرتهم فئة مارقة على الدين وعلى رسالة إبراهيم وإسحق ويعقوب .

حتى كانت ثورة « مارتن لوثر » على رجال الدين الكاثوليكى واحتكارهم للبركة وملكوت السماء بعدما حل بالكنيسة الكاثوليكية من فساد ، فقام بحركة الإصلاح الدينى التى رأى فيها بعض المسيحيين المتنورين إحياءً لتعاليم المسيحية الحقّة ودعا الناس إلى قراءة التوراة حتى يعلموا حقائق دينهم ويلموا بمصدر شريعتهم .

ولم يرم لوثر إلى إحياء الهالة التى أضفتها التوراة على بنى إسرائيل فقد قضت المسيحية منذ قيام المسيح بدعوته على ما كان لليهود من امتياز واعتبر الناس جميعًا ممن ينطوون تحت ملكوت السماء أصحاب النعمى لا الامتياز ، إلّا أن اليهود رأوا فى الدعوة إلى قراءة التوراة بادرةً سانحةً لإحياء مجد إسرائيل والتذكير بامتياز الشعب المختار فعملوا على نشرها وحرّفوا من آياتها ما يضفى هالات المجد والامتياز عليهم حتى أن الكنيسة الكاثوليكية قامت بنشر طبعات صحيحة للتوراة بعد أن انتشرت تلك الطبعات المحرّفة وقدّمت من وقع فى يديها ممن قاموا بترجمة التوراة إلى اللغات الأوربية للمحاكمة بعد أن نسبت إليهم تهمة تحريفها ، وكان من بينهم أتباع الدكتور « جون ويكليف » وكان قد اعتنق البروتستانتية وقام بترجمة التوراة محرّفة إلى اللغتين الإنجليزية والفرنسية فأعدموا حرقًا بعد أن أدانتهم المحكمة بتهمة التحريف ،ولا نعلم هل كان الدكتور ويكليف بروتستانتيًا مؤمنًا أم اندسّ على البروتستانتية من بين اليهود .

وذهبت الكنيسة الكاثوليكية بعد ذلك تفرق بين التشريع فى التوراة والقصص الوارد فيها وقالت بتقديس شرائعها أما قصصها فليست سوى قصص تاريخى عن اليهود ، كما قالت بقداسة الأناجيل الأربعة التى اعتمدها مجمع خلقدونية روحًا ونصًا . غير أن الصراع الذى استشرى بين

الكاثوليك والبروتستانت وما حاق بالبروتستانت من تعذيب واضطهاد قد جمع بينهم وبين اليهود كما قلنا من قبل ، فكان هذا العطف الذى تضفيه الطوائف البروتستانتية على اليهود وكانت تلك الحرية الواسعة التى تمتع بها اليهود بين البروتستانت وكان إلحاح اليهود الدائم عليهم بصدق نبوءات العهد القديم والحق المقدس فى أرض الميعاد وامتياز اليهود على غيرهم من البشر .

وهكذا خرج اليهود من عزلتهم وانطوائهم على أنفسهم بفضل البروتستانتية . إلا أن هناك عاملين آخرين لا يصح إغفالهما فيما نال اليهود من حرية وكيان اجتماعى : أولهما أن تلك العزلة التى أحاط بها اليهود أنفسهم قد جعلت الشعوب تنسى عداءها التقليدى لهم وتنسى خبث طويتهم وأطماعهم التى تؤلب عليهم الجماعات التى يعيشون بينها ، وثانيهما أن موجة التعصب الدينى قد بدأت تفتر وسرت روح من الحرية بين الشعوب ونما الوعى الإنسانى بالإخاء والمساواة بين البشر .

على أن الذى حرّك الكاثوليك فى العصور الوسطى ومازال يحركهم على اليهود حرىّ بأن يحرّك غيرهم من الطوائف المسيحية الأخرى فإن السيطرة اليهودية فى أمريكا مثلا ستفتح أعين الأمريكى فى النهاية على هذا الأخطبوط الصهيونى الذى يعتصرهم ويمتصّ دماءهم كما ستفتح أعين المسيحيين الشرقيين على هذا الخطر الذى يتهدّدهم لاسيما وقد أراقت الصهيونية دماء العرب من مسيحيين ومسلمين مما تجفوه طبيعة تلك الطوائف البروتستانتية التى عانت من اضطهاد الكاثوليكية من قبل .

وقد تنبّه بعض اليهود إلى هذا الخطر القادم ، خطر انبعاث العداء التقليدى لليهود عند المسيحيين وخشوا أن يحرّك الطمع الصهيونى مكامن العداء والتراث القديم الملىء بالحذر والشك من خبث اليهود وعنصريتهم

وتعصّبهم المقيت الذى يملأ قلوبهم بالحقد والبغضاء وكراهية الجنس البشرى الذى لا يمت إلى شعبهم المختار ، فراحوا ينبّهون قومهم إليه .

ومن بين الذين نبهوا قومهم إلى الخطر الذى يهدّد اليهود من وراء الصهيونية الكاتب الأمريكى « الفريد ليلنتال » فهو يقول فى مقدمة كتابه « ثمن إسرائيل »[1] « إن فى الولايات المتحدة مجالاً فسيحًا لأية جماعة تتكتل وتعمل بحرية لغاية معينة ، ولكن هذا التسامح الأمريكى يتلاشى تمامًا إذا ثبت أن عمل هذه الجماعة ينافى مصلحة أمريكا » .

ونجد فى هذه العبارة أن الرجل قد لمس كبد الحقيقة ؛ فإن السياسة التى تسير فيها الصهيونية فى أمريكا ستدفع بالشعب الأمريكى فى النهاية إلى الثورة والتمرّد على السيطرة اليهودية التى تحكمهم وتسخرهم لأهوائها ، لا سيما وأن آثار هذه السيطرة الصهيونية على كثير من نواحى القوّة فى الولايات المتحدة تكاد تعلن عن نفسها كل يوم .

فإذا انبعث الغضب الأمريكى على اليهود - وأمريكا هى حصن الصهيونية العالمية - فإنه سيحيى فى تياره موجة العداء المسيحى لمن يرون أنهم عذبوا المسيح وقتلوه والشعب الأمريكى السمح المتدين لا يلهيه الدين أبدًا عن حقيقة مصالحه ومصالح بلاده ولا ينسى أنه فى الأرض الجديدة التى نزح إليها قد حمل معه مأثورات وتقاليد ترعرعت فى بلاد رحبة فسيحة لا تحدّ من حرية الفرد أو نشاطه أو أثرته القومية ، فإذا لمس ما يحد من حريته أو نشاطه أو رأى من بعض طوائفه ولاءً لغير أمريكا ، ثارت ثورته واندفع فى ثورته إلى لون من الغضب تفقد فيه العاطفة حكمة العقل .

---

(١) Alfred Lilienthal : What Price Israel, Int.,P.3.

ويعرف يهود أمريكا هذه الحقيقة عرفانًا تامًّا ، إلّا أن موجة الصهيونية الحادّة قد جرفت أمامها كلّ بادرة للاعتدال عند اليهود ، فلم يعد هناك يهودى لا يشايع الصهيونية سرًّا أو علنًا ، فالذين نسميهم بالمعتدلين من اليهود ليسوا فى الواقع إلّا من غلاة الصهيونيين ولكنهم يرون فى اعتدالهم وقاءً لغلاتهم ، فإذا انحرفت الموجة بالغلاة قاد المعتدلون السفينة فى موج هيّن لا تنوشه الأعاصير التى أثارها الغلاة والمتطرفون ، فيجنّبون قضيتهم ما يحتمل أن يعتورها من خطر الحملة عليها والتحزب ضدّها .

إلّا أن إصرار الصهيونية وإلحاحها فى تحقيق أهدافها لا يدع للهوادة أو التريثّ مكانًا فى سلوك المعتدلين ، فتطغى الموجة الجارفة للمتعصبين وتعلو صيحة الغلاة لتغطى على كل ما عداها . والصهيونية فى ذاتها وأسلوبها حركة حادة ذات حيوية جارفة لا تنفكّ ملحّة فى تحقيق هدفها الكبير – إحياء دولة يهودا والعودة إلى أرض الميعاد – وهى فى سبيل ذلك تسلك سبلًا شتّى حتى ولو جفت الخلق القويم وامتهنت تفكير الناس ، فليس من يعلو على براعة اليهود فى تزييف الحقائق وإلباس الباطل ثوب الحق ، وليس مثلهم من يزدرى إنسانية البشر من غيرهم ، فهم حين يملكون يذهبون فى إذلالهم للناس إلى أبعد مما يتصوره العقل لا يرعون فى ذلك خلقًا ولا دينًا أو مثلًا إنسانية ، بل إن فى تعاليمهم التلمودية ما يبرّر ارتكاب كلّ معصية وكل مين مع من هم من غير ملّتهم . وهم حين يستخذون يذهبون أذلّة مساكين يستجدون عدالة البشر وفى شخصية شيلوك التى أبدعها شيكسبير فى تاجر البندقية ما يصوّر خلق اليهود على مرّ العصور أبلغ تصوير .

وفى أيامنا هذه وقد بلغت الصهيونية أوج مكانتها فى البلاد الأمريكية نراها حريصةً أشدّ الحرص على رعاية تلك المكانة والإبقاء عليها ما وسعتها الحيلة والجاه والنفوذ . فكلّ ما يؤيد عقيدتهم ومذهبهم وآمالهم

القومية شرع مباح ، وواجب لا يتحلل منه أىّ يهودى فى أمريكا أو خارج أمريكا ، ولكنهم يرون فى أمريكا اليوم ما كانوا يرونه فى بريطانيا من قبل فقد آلت إليها زعامة العالم الغربى وهم فيها كثرة ومال ، يسخّرون كثرتهم ومالهم لتحقيق حلم صهيون القديم فألقوا إليها بثقلهم من جهد ودعاية على أسس علمية ونفسية مدروسة وسيطروا بدعايتهم على الرأى العام الأمريكى سيطرةً لم يشهد لها الشعب الأمريكى مثيلاً من قبل وبلغوا من براعتهم فى الدعاية أن هذا الشعب الأمريكى لا يدرك أنه مخدوع مضلّل تحت وقر الدعاية الصهيونية البارعة .

ويتحرّز الصهيونيون فى دعايتهم فهم يخشون أن يدرك الشعب الأمريكى حقيقة ما يتردّى فيه من خداع الصهيونية ، فنراها تخضع دعايتها لعاملى المرونة والوقت فالدعاية تتلوّن وتتغير حتى تلابس الرأى العام ويختار لها الصهيونيون أنسب الأوقات التى تلائمها .

ولعلنا ندرك ما فى هذه الدعاية من مرونة ومراعاة للوقت المناسب إذا عرفنا تطورها وتغيرها من وقت لآخر ثم عرفنا مدى نجاحها بالرغم مما فيها من متناقضات بارعة .

فلقد أقام الصهيونيون دعواهم ودعايتهم فى البداية على مبدأين التزم بهما كلّ يهود العالم وقادهما الصهيونيون قيادةً بارعةً مرنةً محكمة .

وأوّل هذين المبدأين استثارة الإيمان الدينى فى أعماق المتدينين من طوائف المسيحيين أو البروتستانت بالذات ممن يؤمنون بتفسير لآيات العهد القديم يختلف عن تفسير الكاثوليك والأرثوذكس ويقترب إلى حدٍّ بعيد من تفسير اليهود له ، فالعودة إلى فلسطين هى فى تفسيرهم مصداق لآيات العهد القديم ، فإن كانوا يؤمنون بدينهم فأحرى بهم أن يؤمنوا بعودة إسرائيل وقيام دولة يهودا .

ويقوم المبدأ الثانى على استثارة عطف العالم المتمدين على اضطهاد النازية لليهود وقد اختاروا لذلك أنسب وقت وأبرع تخريج ، فبدأوا حملتهم ضدّ اضطهاد النازية لليهود فى الوقت الذى وقعت فيه النازية فى صراع عالمى تألّب العالم فيه عليها ثم أعقب هذا الصراع حرب مدمرة تألبت فيها الكثرة الهائلة من دول العالم على النازية . وحين قاموا بحملتهم هذه لم يربطوا بينها وبين الدين إطلاقًا حتى لا تلتبس بالنزعة الدينية المسيحية نزعة الانتقام من قتلة المسيح ومعذبيه أو تختلط فى الأذهان بتواتر اضطهاد اليهود فتعتبر تكرارًا لموجات شبيهة من قبل فلا تستثير من الحماس ما يستثيره ظلم غير متواتر ، بل ربطوا بينها وبين الجنس فقالوا إنها اضطهاد آرى للسامية .

ونجحت الصهيونية فى تأليب العالم لا سيما أمريكا على نزعة العداء للسامية حتى غدت عداوة السامية نزعةً لا يقبلها ضمير متمدين وتبنى الأمريكيون حماية السامية من مضطهديها ، فقد بلغ من براعة التضليل الصهيونى أن صرف أذهان الناس عن فكرة الاضطهاد الدينى لليهود إلى الاضطهاد العنصرى لهم ، فبالرغم من أن الاضطهاد الدينى قد غدا نزعةً بالية وغدت حرية العقيدة حقًا لكل فرد إلّا أنها تثير فى أعماق اليهود ألوانًا من مركب النقص القديم وتحملهم فى الوقت ذاته على إغفال كلّ ما يذكر بالعداء بين المسيحية واليهودية فى الوقت الذى يدعون فيه المسيحيين إلى الإيمان بنبوءات العهد القديم وحق العودة إلى فلسطين .

وهكذا سارت الدعاية الصهيونية قبل أن يحتل الصهيونيون فلسطين على أشلاء العرب الساميين ، حتى إذا احتلوها أدركوا أنهم يجمعون بين نقيضين : الحملة على عداوة السامية ، ثم العدوان على السامية ؛ لذلك نراهم يحوّرون دعايتهم تحويرابارعًا يبرّر هذا التناقض ويخفيه ،

ثم يؤكدون كما كانوا يؤكدون من قبل حقّهم فى العودة إلى أرض فلسطين تحقيقًا لنبوءات الكتاب المقدس ، ثم يقولون إنهم ذهبوا إلى فلسطين تحقيقًا للنبوءات ولكن العرب المعتدين ينفسون عليهم هذا الحق ويصدّونهم عن وطنهم الأوّل وأرض ميعادهم الحبيبة وإنهم لا يرفضون أن يعوّضوا العرب عن أملاكهم التى تركوها طواعيةً واختيارًا ولا يذكرون إطلاقًا أنهم حملوا العرب تحت الحديد والنار والإرهاب الصهيونى القاتل إلى ترك ديارهم وإن لم يتخلّوا عنها ، ثم يقولون غير ذلك إنهم يحملون التمدين والحضارة إلى تلك الصحارى التى أهملها العرب فغاض خيرها وأمحلت أرضها وجفّ زرعها وضرعها ، يعودون ليحيوا مواتها ويبعثوا الحياة فى أرضه والنضرة فى جدبها ؛ ثم إنهم يعودون إخوةً متحابين ينشدون السلام مع أبناء عمومتهم ولكن العرب المعتدين يكرهونهم ويتجمعون على قتلهم والثأر منهم ! ! .

هذا هو لب الدعاية الصهيونية بعد احتلال فلسطين فى التوفيق بين النقيضين فنراها تتهم العرب الساميين بالحملة على السامية واضطهادهم ما كانت تتهم به النازية من قبل فتبقى فكرة اضطهاد السامية التى لابستهم والتى أفادوا ويفيدون منها أجل الفائدة حيّة فى الأذهان وتبرز عداوة العرب لهم على أنها بدورها عداوة للسامية .

إلّا أن الصهيونية مهما طوّرت دعايتها وحوّرت فيها لا تمسّ أبدًا فكرة الوعد المقدس ونبوءة أرض الميعاد بأى تطوير أو تحوير فهى الفكرة الخالدة التى تلهب خيال اليهود بالأرض الموعودة وتزكى أفئدة المؤمنين بالعهد القديم مما يحملنا على مناقشة تلك العهود وبحثها بحثًا علميًّا تاريخيًّا من نفس نصوص الكتاب المقدس لنرى مدى الصدق فى ادعاء اليهود لها ونصيبهم منها ، وهو موضوع هذا الكتاب .